إدوارد سعيد أو أخلاقية المعرفة

د. فيصل دراج

تتحدّد وظيفةُ المثقّف بمسؤوليّته الأخلاقيّة في الدفاع عن جملة قيم ومبادئ بوّابتُها الأولى: حرّيّةُ الإنسان، في مستوياتها كلّها. يدافع، بالمعنى البسيط، عن الحرّيّة والعدالة والكرامة الإنسانيّة، ويقاتل من أجل نزوع إنساني لم يتحقّقْ، أي أنّه يدافع عن مستقبل أفضل محتملٍ، فإنْ لازم التّشاؤمُ العقلَ، غدا المثقّفُ مدافعاً عن اليوتوبيا. وسواء اقترن العقلُ بالتّشاؤم، أم تخفّف منه، فإنّ وظيفة المثقّف تأكيد على تغيّر الأزمنة وتبدّلها وتأكيد على المستقبل، كزمن مختلف، وكفضاء تاريخي جديد يصوغه الكفاحُ الإنساني. وإذا كانت أجملُ الأزمنة هي التّي يبدو فيها حاضرُ السّلْب عارضاً ومستقبلُ الإيجاب قادماً، فإنّ أسوأ الأزمنة هي التي يبدو فيها المستقبلُ وكأنّه قد اندفن في الحاضر وسكن فيه؛ وينتهي التّاريخ، أو هكذا يبدو، فتغلق نوافذه وينغلق فيه كلُّ أفقٍ محتمل.

ويمكن للزّمن الأوّل أن يعلن جماله في تفاؤل الإرادة، وفي تفاؤل عقل يرى العبد طليقاً. ولعلّ هذا التفاؤلَ المزدوجَ هو الّذي أطلق، في حقبة من هذا القرن توارتْ، أصواتَ غرامشي ورسل وسارتر وبيترفايس، حيث المثقّف مسؤول ـ أو هكذا يعتقد ـ عن جوع طفل إفريقي وحرمان عامل مستغَلّ واغتصاب حقوق إنسان ضعيف. وعلى نقيض الزّمن الأوّل، وعلى فراق معه، نعيش حاضراً صفته انحطاطٌ كونيٌّ شامل: إذ الاختلافُ مقهورٌ والتبايُن محاصرٌ والمستقبلُ كلمةٌ لا ضمانَ لها. ومع ذلك، فإنّ كلّ مركز، مهما اتّسع، لا يلغي هامشاً معارضاً له ومختلفاً عنه، يقرأ المركزَ ويردّ عليها بقولٍ هامشيٍّ مركزه

إدوارد سعيد في سطور

ـ ولد عام ١٩٣٥ في القدس. وكان أبوه رجلَ أعمالٍ محترماً.

ـ هربتْ عائلتهُ من فلسطين عام ٤٨/٤٧ إلى مصر، فالتحق بمدرسة «فيكتوريا كولدج» البريطانيّة، قبل أن يُرسَل إلى الولايات المتحدة لينهي دراسته الثّانوية في ولاية ماساشوستس.

ـ التحق بجامعة پرنستون، حيث دَرَسَ الإنكليزيّة والتّاريخ، وأُعجِب بـ «ريتشارد بلاكمور»، أحد أبرز «النقّاد الجدد».

ـ أنهى تمرّسه الأكاديمي في هارڤرد، حيث درس الأدبَ المقارن على يد هاري لاڤين، وكتب أطروحة الدّكتوراه عن جوزيف كونراد.

ـ كتبَ مقالَه السياسيَّ الأوّل عقب أزمة السويس.

ـ تزوّج من سيّدة أمريكيّة، ثمّ انتهى زواجه منها بالطّلاق. وعاد فتزوّج ثانية من اللّبنانيّة مريم قرطاس.

ـ انضمّ إلى المجلس الوطني الفلسطيني عام ١٩٧٧، وهو عام صدور كتابه الهامّ مسألة فلسطين.

ـ ترجم إلى الإنكليزيّة الخطابَ الّذي ألقاه رئيس منظمة التحرير السيّد ياسر عرفات أمام الجمعيّة العامّة للأمم المتحدة في ١٣ تشرين الثّاني ١٩٧٤، وذلك قبل عشرة أيّام من حصول منظّمة التّحرير الفلسطينيّة على منصب «مراقب» في الجمعيّة العامّة.

ـ ترجم إلى الإنكليزيّة «إعلان استقلال دولة فلسطين» عام ١٩٨٨.

ـ وَضَعَتْه «الرّابطة اليهوديّة المعادية للتشهير بإسرائيل» (The Jewish Anti - Defamation League) على لائحة «كبار المروّجين للتأييد العربي في صفوف الطلّاب، والأساتذة الجامعيّين» في الولايات المتحدة. ووصفه Edward Alexander بـ «أستاذ الإرهاب». وتعرّض مكتبه لعمليّات تخريب متعمّدة.

ـ دعا منذ أواسط السّبعينات إلى دولتين:

الحقيقة. وإلى هذا الهامش النيّر، لاتزال تنتمي أصوات كبيرة مثل تشومسكي وهابرماس وفريدريك جيمسون. وإليه ينتمي أيضاً: إدوارد سعيد.

مسار إدوارد سعيد مفارقة جديرة بالتأمُّل: فهو ناقد أدبيّ مختصٌّ يندّد بالاختصاص المريض؛ وهو فلسطيني ـ أمريكي يندّد بالمنظور الأميركي للقضيّة الفلسطينيّة، سواء جاء المنظورُ من مسؤول في وزارة الخارجيّة، أم جاء من مسؤول فلسطيني لا يعرف عن المسؤول الأوّل شيئاً؛ وهو مثقّف أكاديمي، ينحّي الأكاديميّة جانباً، ويعيد تسييس الأمور بشكل صحيح. وقد يتّكئ «سعيد» على فلسطينيّته ويدافع عادلاً عن القضيّة الفلسطينيّة، غير أنَّ دفاعه يبدأ بالموضوعيّة قبل أن يبدأ من فلسطين؛ ذلك أنَّه في بحثه النظريّ لا يرجع السّياسة إلى بلاغة وعلم جمال فقير، بل يضع البلاغة في حقل السّياسة ويسيّس العلاقات الجماليّة. وفي هذه الحدود يقيم إدوارد فرقاً بينه وبين مثقّف الاختصاص، الذي يغلق النّصّ وينغلق فيه، حتّى ينطفئ الواقعُ ويتهاوى التّاريخُ. كما أنَّهُ يفرض مسافة بينه وبين «أكاديمي» فلسطيني مأخوذ بـ «الواقع» و«السياسة الواقعيّة»، وغافل عن معطيات الواقع ودروس التّاريخ. والفرق لا يصدر عن «منهج أكاديمي» مختلف أو عن اختلاف في «الموقع والمسؤوليّة»، وإنّما يصدر عن الفرق بين التّجريد اللامحدود والتجريد المفهومي الموحّد؛ وبمعنى ما، بين المجرَّد والمشخَّص. يقول إدوارد في دراسة له عنوانها «معارضون.. جماهير، دوائر وجماعات» ما يلي:

> بكلام عامّ جدّاً، إذن، يعني عدمُ التدخُّل بالنسبة للاختصاص في العلوم الإنسانيّة. دعه يعمل (Laissez faire). فلهم «هم» أن يديروا البلادَ وأنّا نحنُ فسنُطنبُ في شرح وردسورث (Wordsworth) وشليغل (Schlegel). إنّنا لا نحط الأشياء كثيراً حين نقول إنَّ عدم التدخُّلَ والتخصُّصَ الجامد في الأكاديميّة مرتبطان ارتباطاً مباشراً بما تمَّتْ تسميته بالهجوم المعاكس من قبل «نخبة تجاريّة من رجال الأعمال على درجة عالية من التعبئة» كردّ فعل على الفترة السابقة (ما قبل ريغان) مباشرة حيثُ كانت الحاجات القوميّة تُعتبر ملبّاةً عن طريق موارد خُصِّصتْ بطريقةٍ جماعيّة وبطريقة ديموقراطيّة. غير أنَّ العمل من خلال المؤسّسات ومراكز البحث والفروع الأكاديميّة والحكومة وأوساط النخبة التّابعة للشركات. قد أعلن عصراً جديداً للعقل ترافق مع تشويش الواقع وتعميته[1].

ينتقد سعيد صنميّة الاختصاص القائمة على ديالكتيك زائف قوامه رفع المعرفة وإلغاء العارف، إذ تبدو المعرفة حقلاً مغلقاً ومستقلاً في انغلاقه، ويبدو العارف سيِّداً في حقله المستقلّ المغلق؛ أيْ يبدو مختصّاً بعلاقات الكتابة ومختصّاً باحترام قواعد الاختصاص كأنَّ العارفَ نموذجٌ إنسانيّ من نوعٍ خاصّ لا علاقة له بالنماذج البشريّة الأخرى. ولذلك يقول إدوارد:

> إنّنا بحاجة إلى التفكير بالإفلات من الغيتوات المدرسيّة التي سُجِنّا فيها كمثقّفين. ويتمُّ ذلك الإفلات بإعادة إطلاق السيرورات الاجتماعيّة

(١) مجلّة **قضايا وشهادات**، الكتاب الثالث «الحداثة» دار عيبال، قبرص، ١٩٩١، ص ٣٦١ ـ ٣٦٢.

إسرائيليّة وفلسطينيّة. وعام ١٩٨٣ دعا المجلس الوطني الفلسطيني إلى تبنّي مشروع مقاومة مدنيّة جماهيريّة بديلاً عن العنف المسلّح.

ـ اتّهم منظّمة التّحرير بأنّها لا تعرف السّياقَ الأمريكي، واتّهم ممثّليها بالفساد وعدم الأهليّة وبالاعتماد على وسطاء وسماسرة أمريكيّين لشرح قضيّتهم بدلاً من مؤسّسات المجتمع المدني الأمريكي.

ـ استقال عام ١٩٩١ من المجلس الوطني الفلسطيني.

ـ دان التّدخل العسكري الأمريكي في حرب الخليج. وكان قبلها قد دان التّدخُّل العراقي في الكويت.

ـ شجب اتفاق غزّة/ أريحا بين منظّمة التّحرير الفلسطينيّة ودولة إسرائيل، ورفض حضورَ حفلة التوقيع في «البيت الأبيض».

ـ يدرّس الأدب الإنكليزي والأدب المقارن في جامعة كولومبيا في نيويورك منذ ما يقارب الثّلاثين عاماً.

ـ أحيا العامَ الماضي حفلتيْن موسيقيّتين في واشنطن ونيويورك، بالاشتراك مع ديانا تقي الدّين.

ـ يتكلّم الإنكليزيّة والعربيّة والفرنسيّة بطلاقة. وهو على دراية واسعة بالإسبانيّة والألمانيّة والإيطاليّة واللاّتينيّة.

ـ اكتشف مؤخّراً إصابته بسرطان الدم (اللوكيميا)، لكنّ صحّته جيّدة ومعنويّاته مرتفعة ونشاطه على صخبه.

ـ أعماله: **جوزيف كونراد ورواية السّيرة الذّاتيّة (١٩٧٦)**، وهي أطروحة الدّكتوراه.

بدايات: النيّة والمنهج (١٩٧٥).

الاستشراق (١٩٧٨). وقد ترجمه د. كمال أبو ديب إلى العربيّة، وصدر عن مؤسّسة الأبحاث العربيّة.

مسألة فلسطين (١٩٧٩).

تغطية الإسلام: كيف يُقرّر الخبراء ووسائل الإعلام رؤيتنا لبقيّة أرجاء العالم (١٩٨١)، وقد ترجمته سميرة خوري إلى العربيّة، وصدر عن مؤسسة الأبحاث العربيّة.

العالم، النّصّ، النّاقد (١٩٨٣). وقد فاز هذا الكتاب بجائزة «رينيه ويليك» الخاصّة بالجمعيّة الأمريكيّة للأدب المقارن.

ما وراء السّماء الأخيرة: حَيَواتُ الفلسطينيّين (١٩٨٦).

لومُ الضّحايا: الأكاديميا الزّائفة ومسألة فلسطين (١٩٨٨) وهو كتاب أشرف عليه بالاشتراك مع كريستوفر هيتشنز ويضمّ ثلاثة مقالات لسعيد إلى جانب كتّاب آخرين.

توسيعات موسيقيّة (١٩٩١).

السّلام في الشّرق الأوسط (١٩٩١).

الثّقافة والإمبرياليّة (١٩٩٢). ويقوم د. كمال أبو ديب بتعريبه، ويصدر عن دار الآداب قريباً